تهيّأت تلك الاجسام للامراض واخصّها السلّ . وربما كان منبع العدوى من البيوت التي يسكنها السوريون او من الملابس التي تُخلَع على ذوي الحاجة منهم . واذا ما تمّ سير العدوى فيهم وتملّك المرض من ابدانهم تكفّلوا من ثمّ بنقله الى بلادهم ونشر جرثيمه بين مواطنيهم ولذا تواتر السلّ في بلادنا من يوم بدأت المهاجرة وعاد المهاجرون الى اوطانهم

ونحن نخشى ان يستشري الشر ويسير الداء في هذه البلاد سيرًا سريعًا وينتشر فيها لما يلاقيه من سهولة الانتقال في الداخل بسبب المخالطة والمعاقة وفي الخارج لعدم تدبير المدينة او القصبة او الضيعة على سنن القوانين الصحيّة العامّة ولتقلّ بالحري لعدم وجود تلك السنن او مراعاتها وهو الامر المعزّز في غير بلادنا فيتبها كثيرًا من تفشّي الداء الذي نحن في صدده

ومن اهمّ الاسباب في اجتذاب السلّ انحراف بعض شبابنا عن محجّة الآداب واقتراف المعاصي واستسلامهم الى دائمي الامیال والشهوات فتقضي اعصابهم وتفقد قواهم وتهزل اعضاؤهم فتنالهم من ثمّ اسوارُ الصحة ويتسلّقها ذلك الداء الخبيث . وقد يجدر بنا ايضاً ذكر عادة التقبيل مثل واصلٍ للعدوى ولو كان الامر نادرًا

امّا ما ليس بنادرٍ شَغَفُ الناس عندنا بالترف والمفاخرة بالزينة والملابس فتراهم يجوزون حدّ الاسراف بتمويه الظواهر ويُذلّون الاعضاء لخواطر الزيّ والمصطلحات فيثبّطون بغوّها ويجملون الخالّ في وظائفها وهم مع ذلك يقصّرون عن ايفاء ابدانهم حقوقها من التغذية فيغذّونها بقوتٍ ناقصٍ لا يفي بنموّ الجسم وقوام العيش فيكون من ذلك انحراف الصحة وضعف البنية وتغلّب الامراض عليها . فيالَيت مواطنينا الذين يحدو بهم حادي التشبّه باهل المغرب يأخذون عنهم العادات الحسنة المفيدة للصحة كتفضيل تغذية الجسم وترويضه على تزيينه باللابس والازياء ويطرحون منها ما يخلّ في الآداب وصحّة البدن معًا (ستأتي البقية)

الاخ (فرا) غريغون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما سبق)

٩

وقد اسعد الدهرُ غريغون بانهُ عاش في عهد باباوات وجّهوا كلّهم عنايتهم نحو الشرق

نخص بالذكر منهم اوجانيوس الرابع عاقد المجمع الفلورنتيني ونيقولا الخامس (١ وقبل الجميع كليكستوس الثالث. فان هذا البابا الاسباني كان شغلهُ الشاغل الشرق واصلاح حال المسيحيين الشرقيين. واوّل اعماله عند ما تبوّأ العرش مجاهرتهُ بالنذر انهُ يضحّي لهذه الغاية كل كنوز الكنيسة وحياتهُ ان لزم الامر. وكان يقضي الساعات الطوال بمذاكرة الفرنسيسكان الواقفين على شؤون الشرق ولم يكن يملّ من العود الى هذه المسألة. والكتابات الحاوية لاعمال ملك هذا الحبر الجليل مع قِصَر مدّتهِ تؤلف ٣٨ مجلّدًا ضخمًا. منها قسم كبير قد كتبهُ في سبيل مساعدة الشرق وكلّها محفوظة بين سجلّات الفاتيكان السرّية (٢. والحقُّ يُقال أنهُ لم يكن يكتفي بالقول حاله. حُكي انهُ رأى مرّة على مائدته ملحفة من ذهب فهتف « خذوها للشرق. فثلها من الدين تغني عنها »

وفي اوّل سنة من ملكهِ كتب في ١٤ حزيران ١٤٥٥ الى البطريرك يعقوب الحدثي رسالة سلّمها الى رسولهِ ابرهيم وبها يشيد في ايمانهِ وغيرتهِ على صالح رعيتهِ الروحيّ (٣. وفي ١٤٥٧ بعث ايضًا برسالة الى مسيحيّي سوريا

ولا حاجة الى وصف احتفائهِ بغريفون القادم الى رومة حبًّا بخير الموارنة العزيزين لديهِ. وكأن الطبيعة وفقت بينهما اذ جمعت المرسل الفلمنكي بذلك الحبر الشهم الذي ما برحت في عروقهِ حرارة الدم الاسباني رغمًا عن شيخوختهِ. فكنت تراهما وكلاهما ذو عقل واسع وافكار عظيمة لا همّ لهما الّا خلاص الشرق. ولا ريب ان كليكستوس اغتنم ما كان اكتسبهُ غريفون من الخبرة في خلال خمسة عشر عامًا صرفها بسوريا. ويهمّ علينا ان التاريخ لم يحفظ لنا شيئًا من تفاصيل هذا السفر. ولا نعلم في اي سنة كانت رحلة الاخ غريفون الى عاصمة الكثلكة الّا ان مدّة ملك كليكستوس القصير تقضي بانّ ذلك جرى بين ١٤٥٥ و ١٤٥٨

وبعد اعوام قليلة عاد غريفون ثانية الى رومة. فان بطرس الملقب بابن الحسّان كان خلف على الكرسي البطريركي يعقوب الحدثي فجمع سنة ١٤٦٩ اعيان الاكليرس والطائفة المارونية وقرر ان يبعث الى رومة رسائل حاوية عبارة الخضوع للكرسي الرسولي ويطلب

---

١) راجع بستور « تاريخ الباباوات طبعة الماينة الجزء الاوّل ص ٤٦٣. وقد اورد هناك براءة من لاون العاشر الى بطرس بطريرك الموارنة جاء في اوّلها ذكر رسالة من نيقولا الخامس الى الموارنة ٢) بستور الجزء الاوّل ص ٨١٥ ٣) الدويهي ٤٠٦

تثبيت انتخابه . وقد وقّع رسالتهُ كلُّ الحضور وتعيَّن لحملها غريفون ومعهُ اثنان من الفرنسيسكان الاخ سمعان والاخ اسكندر (١ . فوصل هذا الوفد الى رومة في النصف الاول من عام ١٤٦٩ (٢

وكان في تلك الاثناء قد خلف بولُسُ الثاني بيوسَ الثاني وورث عن سلفهِ الكريم غيرتهُ على نصارى الشرق . فاحتفى ايَّ احتفاء بوفد الطائفة المارونية وامر باجراء الفحص عن انتخاب البطريرك بطرس وصحة عقيدته فشهد غريفون خير شهادة لكلا الامرين . وقد كتب من رومة الى الموارنة الرسالة الآتية (٣:

« يا اخوتي الروحانيين مكتوب في الانجيل الطاهر ان سيدنا يسوع المسيح قال لبطرس : يا بطرس سألت من اجلك ان لا تنقص امانتك . فارجع وثبّت اخوتك . ولاجل هذا سيدنا بولس بابا رومية نائب المسيح وخليفة ماري بطرس بعثني اليكم لاعلمكم امانته البطرسية واخبرهُ عن امانتكم ان كانت متفقة مع امانته ام لا . ان كنتم معتقدين ان امانته مباركة ام لا . فانا اخبرتهُ انكم متفقون معهُ ومعتقدون اعتقادهُ وطائعون لكرسيه . وهذا ظاهر من ثمان شهادات : الشهادة الاولى ان بطركم مع المطارنة والخوارنة والقسوس والعلمانيين لما سألتهم بنفسي عن ذلك اجابوني الجواب المذكور وفي يقيني انهم لا يتكلمون بلسانين ولا يجملوني كاذبًا عند بابا رومية . الشهادة الثانية ان في الدنيا فِرَقًا كثيرة من مؤمنين وغير مؤمنين . ونعرف ان الموارنة ليسوا متفقين ومعتقدين مع الغير المؤمنين . ولا مع النسطرة ولا مع اليعاقبة ولا مع الروم . بل يعتقدون ان مذهب هؤلاء ما هو مستقيم وان كانوا يقولون هكذا عن اعتقاد الافرنج فلا يكون رجل عاقل ولا فهيم ولا قديس ولا كتب ولا شهادات صحيحة الّا عند الموارنة . وهذا محال من قبيل انهم فرع صغير ولكنهم اذا كانوا متفقين مع الافرنج فانهم يكونون متفقين مع جماعة كثيرة نشأ منها في كل حين قديسون وعلماء وملوك الخ . الشهادة الثالثة ان بطريركم ارميا على معرفة من جميعكم سافر الى رومية ودخل على البابا واتفق معهُ في المجمع واعتقد اعتقادهُ واخذ منهُ التاج

١) الدويهي ٤١٣

٢) راجع الدويهي الوجه ٤٣٩ و ٤١٣

٣) قد كان فيما مضى نسخٌ كثيرة من هذه الرسالة في انحاء لبنان . ووُجد في عهد الدويهي نسخةٌ منها بين سجلّات دير قنّوبين بخطّ المطران جبرائيل القلاعي تلميذ غريفون فرواها في تاريخهِ ص ٤٠٦ ونقلناها عن عنهُ حرفيًّا لأهمّيّتها

والخاتم اشارة دائمة على الاتفاق المذكور معكم دون غيره . الشهادة الرابعة ان جميع النصارى في المسودية يقولون بعد فلان وانتم تقولون مع الافرنج : يا فلان انا اعمدك باسم الآب والابن والروح القدس . الشهادة الخامسة ان جميع الموارنة من الزمان القديم يكرزون ليابا رومية الثابت بافمه ولم يكرزوا لغيره من اهل المذاهب الاخرى . والقدماء منكم ما كتبوا هذا الّا لانهم كانوا متفقين مع بابا رومية ومعتقدين اعتقادهُ . الشهادة السادسة ان البطرك ماري ارميا المذكور ويوسف مطران مار اسيا وتاودورس اسقف كفرفو وكثيرين من الكهنة وشعب الموارنة ووكلاء جميع شعبكم نزلوا الى طرابلس امام قاصد بابا رومية وامام اناس كثيرين وهناك اعترفوا ان في السيد المسيح ارادتين وهما متحدتان ومتفقتان لا مختلطتان وممتزجتان ولا متفرقتان ولا منفصلتان بل متحدتان الخ . الشهادة السابعة ان الموارنة في بلاد الافرنج وروما وقبرس وطرابلس وبيروت والقدس الشريف من الزمان القديم الى اليوم يدخلون كنائس الافرنج ويقدسون على مذابحهم في حلهم وقرابينهم . ويرفعون الجسد والدم مثلهم . ويرسمون الصليب على وجوههم مثلهم . ويعترفون ويتقربون عندهم ويقبلون هديتهم مثل التاج وغيره الخ . الشهادة الثامنة مذكور في كتاب اقليمس ان السيد المسيح قال لبطرس : يا بطرس اذا رأيت العلم صادرًا من قاعدة رومية فاعلم ان الخلاص قرب من شعبك . ومن قبل اليوم تمّ وكمل هذا الكلام . لانهُ يوجد في بلاد الافرنج تحت طاعة بابا رومية الوف وربوات من المعلمين وكثير من القديسين الذين انفقوا اعمارهم في العمل والمطالعة وامور الدين والاعتقاد الخ . ولاجل هذا البطريرك ارميا وكهنته وشعبه الموارنة من قبل هذا الوقت بمائتين وخمسين سنة اتفقوا واعتقدوا مع الافرنج وبطاركة كثيرون بعدهُ كما في زماننا البطريرك يوحنا الجاجي وبعده الى اليوم السيد البطرك بطرس الساكن في دير قنوبين . ونسأل الله ان تكونوا متفقين ومعتقدين هكذا ويصدق ما قلتهُ فيكم لسيدنا بابا رومية »

فمن هذه العبارات الاخيرة يُستدَلّ انّ غريغون كان للموارنة نصيرًا عظيمًا في رومة . وبمساعيه أُجيز لهم المحافظة على بعض الطقوس الشرقية كما سبق القول (١

---

(١) ورد في رسالة من الاب فرنسيس سوريانو حارس الاراضي المقدّسة الى البابا لاون العاشر ان الموارنة لا يمتازون عن اللاتين الّا « ببعض طقوس خاصّة بكنيسة الشرق قد اثبتها الكرسي الرسوليّ جريًا على ما طلب الاخ غريغون »

ولما عاد الى لبنان حمل الى رأس الطائفة المارونية رسالة من البابا بولس الثاني يقول فيها انهُ وصلهُ كتاب البطريرك النبيّ بغيرته على حفظ الايمان الصحيح بين أبنائه وعيتهِ. كما أيد ذلك كلام المرسل الفرنسيسي وقد ضمّن الحبر الاعظم رسالتهُ شروحًا عن بعض مسائل تختصّ بالعقيدة ليس تحتها اليوم كبير امرٍ واختتمها بتثبيت بطرس على الكرسيّ البطريركي وتحريضه على ان يتلقّى التعليمات من غريفون ورفقائه ويعمل بمشورتهم كانها جميعها صادرة منهُ نفسهِ. والرسالة مؤرّخة من رومة في شهر آب سنة ١٤٦٩

وذهب بعض المؤرّخين الى ان البابا لم يكتفِ بما منح غريفون من السلطة بل اقامهُ بطريركًا على الموارنة

هذا ولم يخلُ لنا ثلاث سنوات منذ كنّا نبحث في مكتبة البونديستيين ببروكسل عن اخبار الشرق في تواريخ مجموعة هنالك قلّ نظيرها في اوربا. فما اعظم ما كان اندهاشنا اذ عثرنا بين تواريخ الرهبانية الفرنسيسية بما يفيد تعيين المرسل الفلنكي بطريركًا على لبنان فرأينا في ذلك الامر من الغرابة ما استدعى نظرنا فيهِ والبحث عن صحّتهِ وكان ذلك اوّل ما حملنا على كتابة هذه المقالة

ومما يزيد الامر غرابةً ان الموارنة كانوا وقتئذٍ قد انتخبوا لهم بطركًا وغريفون كان هو عينهُ حاملًا البراءة المؤذنة بتثبيت انتخابهِ. ومع ذلك فالمؤرّخون جميعهم الّا ما ندر اوردوا الامر كأنهُ واقع حقيقةً

ومرجع شهاداتهم كلّها مع كثرتها الى اصل واحد فانهم نقلوا الخبر عن المؤرّخ الفرنسيسي وَدِنغ

اما نحن فنردّ على ما رواهُ وَدِنغ برواية غلاسبرغر الفرنسيسي المطبوعة حديثًا في ايطاليا (١). فهذا الكاتب الالماني دخل الرهبانية سنة ١٤٧٢ فكاد يعاصر غريفون. وروايتهُ بقيت خطّية ملقاةً حتى يومنا في زوايا النسيان فلم يقف عليها وَدِنغ ليستعين بها في تأليفهِ

فنبذتهُ عن غريفون قد حوت على اختصارها امورًا جوهرية وقد اعتمد غلاسبرغر في ايرادها على ما جاء في كتابات الفرنسيسيين المصاحبين لغريفون او اللاحقين بهِ الأدنين. فتراهُ يصف مساعي غريفون المجيدة ويعظّم اعماله لكنهُ لا يروي شيئًا عن تبوّئهِ

(١) في المجموعة المسمّاة: Analecta Franciscana

كرسيّ البطريركية . فإضرابهُ عن ذكر ذلك دليلٌ واضح على انّ لا صحّة لهُ

والاولى بنا ان نقول ما قال كوارتميوس وقد اعترض على رواية ودّينغ فقال بعد ما اشار اليها « ان قول ودّينغ ليس سوى مبالغة لاظهار فضل غريفون في تعليم الموارنة والعناية بامر خلاصهم »

هذا واننا نرتئي انهُ حدث تغيير في حال هذا المرسل الكريم عند عودتهِ من رومية فانهُ رجع الى لبنان حائزًا على وكالة رسمية وسلطة متّسعة . وفي رسالة بولس الثاني الى البطريرك اشارة الى ذلك كما سبق القول . ويؤيّد هذا الرأي ان البابا سيكستوس الرابع بعد موت غريفون سنة ١٤٧٥ ارسل الى رئيس الفرنسيسكان العامّ يوصيهِ ان يبعث الى لبنان احد ابناء رهبانيّته بصفة نائب الكرسي الرسوليّ . وقد قام بهذه المهمّة الفرنسيسكان دون سواهم حتى اواخر القرن السادس عشر حيث قام غيرهم بهذه الوظيفة لدى الموارنة

فمن المقرّر اذن انّ غريفون كان سبقهم الى هذه الرتبة السامية في لبنان . ولسائل يطلب أيأتي هل سيم اسقفًا ام لا ؟ نقول ان المؤلّفين اجمعوا على الجواب بالايجاب ونحن لا نخالف لهم رأيًا . ولعلّهُ كان اسقفًا يدبّر شؤون اللاتين في هذه البلاد ويقوم لدى الطوائف الشرقية مقام القاصد الرسوليّ في عصرنا . فهو اوّل من قام بأعباء القصادة التي لم يتقرّر انشاؤها بصورة نهائية الّا في اوائل القرن الحاضر

ولا ريب انّ المؤرّخين الغربيّين نظروا الى ما حازهُ غريفون من السلطة الطائلة فتوهّموا انهُ سمّي بطريركًا على الموارنة . فهذا رأينا في ما حملهم على ايراد مثل تلك الرواية الغريبة

امّا الدويهيّ فقد ذهب الى انّ غريفون كان في واقع الحال بطريركًا على اورشليم لا على الموارنة . لكننا لسنا ندري على ايّ دليل استند هذا المؤرّخ الجليل في روايته هذه . وعلى كلّ لو فرضنا ذلك فلا يصحّ ان يكون غريفون بطريركًا على اورشليم الّا شرفًا لانّ البطريركيّة اللاتينيّة لم تتجدّد في المدينة المقدّسة الّا بعد منتصف القرن الحالي . بل لا يمكن مثل هذا الافتراض لانهُ في مدّة اقامة غريفون بلبنان كان انكردينال بسّاريون الشهير (١٤٠٩ — ١٤٧٢) هو صاحب لقب البطريرك الاورشليمي وخلّفهُ فيهِ لويس الاوّل ذو هَرْكور الذي مات سنة ١٤٧٩ (١ (ستأتي التتمّة في العدد الآتي)

١) راجع في تاريخ البطريركية الاورشليميّة على اللاتين مقالة وردت في مجلّة الاراضي المقدسة (Das heilige Land.) سنة ١٨٩١ ص ٣٦